

## الزجل ظاهرة ترفية

### - قراءة في نماذج أندلسية -

أ.م.د. صالح ويس محمد\* و م.م. هبة عيسى حسين\*

تأريخ القبول: ٢٦/٣/٢٠١٩

تأريخ التقديم: ٤/٣/٢٠١٩

#### في الزجل:

يعد فن "الزجل مقطوعة منظومة بعربية ملحونة"<sup>(١)</sup> يغلب عليه العامية وبساطة التعبير، وهو أحد أصناف القطع الغنائية في الموسيقى الأندلسية من حيث القالب الشعري المتمثلة بالصنعة<sup>(\*)</sup> والتوشيح والزجل والبرولة<sup>(\*\*)</sup><sup>(٢)</sup>.

وقد جعله صفي الدين الحلي في مرتبة عالية بقوله: "وهو أرفعها رتبةً، وأشرفها نسبة، وأكثرها أوزاناً، وأرجحها ميزاناً، ولم تنزل إلى عصرنا هذا أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة ومخترعوه أهل المغرب"<sup>(٣)</sup>. فضلاً عن كونه "ضرباً من ضروب النظم، يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والقافية كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب ولا

\* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة الموصل .

\* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة الموصل .

(١) الميزان في الموسيقى الأندلسية، عبد العزيز عبد الجليل، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والاعلام، دار الجاحظ للنشر، ع (٨)، ١٩٨٠م: ٦٣.

(\*)الصنعة: مقطوعة غنائية شعرها عربي فصيح. المصدر نفسه: ٦٢.

(\*\*)البرولة: مقطوعة غنائية نظمت بلهجة عامة المغرب كنظم الملحون: المصدر نفسه ٦٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٢-٦٣.

(٣) العاقل الحالي والمرخص الغالي، الشيخ الإمام العالم العلامة صفي الدين الحلي، تحقيق:

د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م: ٥.

يختلف عنه من جانب القافية<sup>(١)</sup>. وهو أندلسي المنشأ عربي الأصل، وقد ذاع في أحياء الأندلس ليكون واقعاً شعبياً يتغنى به عامة أهل الأندلس لسهولة إيقاعه وجمالية نبراته الموسيقية، وانتقل من الأندلس إلى المشرق العربي وذاع في بلدان عربية خاصة مصر والشام<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن استعماله في وصف شؤون حياتهم اليومية بطريقة قريبة إلى نفوسهم، فجاءت أزجالهم أدق من الشعر الكلاسيكي في طابعها الأندلسي وتمثيلها للروح الأندلسية<sup>(٣)</sup>.

ويبتعد الزجل كل البعد عن القصيدة، وينبع من عواطف عفوية فينطقونها دون الرجوع إلى قواعد لغتهم فلا يتخرجون من اللحن أو الخطأ<sup>(٤)</sup>. وقد ذكر الدكتور المغربي الجيلاني الغرابي بأن القصيدة الزجلية شكل من أشكال توثيق الوقائع و الأحداث، وخزان يخزن الموروثات، ومنهل ثر ينهل منه السوسيولوجي والمؤرخ والأناسي و(الأنثروبولوجي)..... لتعرف المجتمعية والوقوف على الإرث الحضاري<sup>(٥)</sup>.

أما سبب تسمية هذا الفن زجلاً لأنه لا يلتدُّ به، وتفهم مقاطع أوزانه، ولزوم قوافيه، حتى يُعنى به، ويصوت فيزول اللبس بذلك<sup>(٦)</sup> فالبساطة وشفافية التعبير صفتان أساسيتان في فن الزجل.

- 
- (١) الموشحات الأندلسية بين القصيدة والغناء، اسماعيل دليلة، اطروحة دكتوراه، مقدمة إلى كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، بإشراف: أ. د. محمد مهداوي، ٢٠١٦م: ٧٠.
- (٢) ينظر: الأدب الأندلسي، د. سامي يوسف أبو زيد، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ط٢، ٢٠١٦م: ١٣٤.
- (٣) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة -، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط١، ٢٠١١م: ٧٩.
- (٤) ينظر: حول الأدب الأندلسي، د. قيصر مصطفى، مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (د. ط)، (د. ت): ٩٨.
- (٥) ينظر: دراسات في الثقافات الشعبية، أ. د. الجليلي الغرابي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠١٣م: ٦١.
- (٦) العاقل الحالي والمرخص الغالي: ٦.

## أدوار الزجل:

لقد مرّ الزجل بدورين:

- ١- مثل الدور الأول الأغنية الشعبية، والذي تطور إلى القصيدة الزجلية التي جعلوها في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض، لا تختلف عنه بغير اللحن واللفظ.
- ٢- أما الدور الثاني فيعود إليالمام الزجالين ابن قزمان من خلال إكساء الزجل حلتة النهائية عبر ديوانه الذي عدّ أنفـس أثر زجلي أندلسي وصلنا عبر التاريخ<sup>(١)</sup>.

## سبب ظهور الزجل:

إنّ عدم إتقان حكام المرابطين لقواعد اللغة العربية الفصحى سببٌ في اقتناء الشعراء فن الزجل لأنهم لم يجدوا في رحابهم علو المكانة والتقدير ماكانوا يجدونه عند أسلافهم من ملوك الطوائف<sup>(٢)</sup>.

## أهداف الزجل:

- ١- إثراء كينونة الذات الأندلسية وتميزها عن باقي الدول من خلال نظمهم لفن الزجل.
- ٢- إظهار الثقافات العامية على ساحة الفنون، وذلك بمشاركة شرائح مختلفة من المجتمع الأندلسي.
- ٣- إبراز الهوية من خلال تسليط الضوء على لغتهم العامية وتوظيفها في قالب الزجل
- ٤- إحداث متعة غنائية للمتلقي من خلال هذا اللون المحلي.

(١) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - ٢/٢٠٤. وينظر: عقود اللال في الموشحات والأزجال، تصنيف: شمس الدين محمد بن حسن النواجي (٧٨٨-٨٥٩هـ)، تحقيق: عبد اللطيف الشهابي، دار الرشيد للنشر، توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان، بغداد - العراق، (د. ط)، ١٩٨٢م : ٧.

(٢) ينظر: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده، د. مصطفى الشكعة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د. ط)، ١٩٧٢م : ٤٤٩.

## أوجه الالتقاء والافتراق بين الموشح والزجل:

- ١- المطلع
- ٢- الأغصان
- ٣- الأسماط
- ٤- الأقفال المتعددة
- ٥- الخرجة

يلتقي الزجل مع الموشح بهذه الأجزاء وخاصة في الشكل الخارجي وفي الأوزان ونظامالوقوف (١) إن كلا الفنين (الموشح والزجل) يخضعان لقواعد في البناء الخارجي والداخلي، ولكن القواعد التي وضعت في بناء الموشح أصعب من القواعد التي يبني عليها الزجل، فضلاً عن خروج الكثير عن قواعد البناء وساروا على مبدأ الحرية (٢).

### الفارق بين الموشح والزجل :

- ١- إن الخرجة في الموشح تكون عامية أو أعجمية، في حين أن الخرجة في الزجل تكون واضحة وتتسم بطابع البساطة والزجل كله يكتب بلغة عامية وقد تخالطه ألفاظ أعجمية وتكون مطلعاً له وهذا الأمر مختلف تماماً لخرجة الموشح.
- ٢- الأقفال تتسم بالصعوبة أكثر من الزجل وهذه المسألة ليست مقصورة على الأقفال، وإنما تتصل بالموشح كله والزجل جميعه.
- ٣- يكون عدد الأجزاء في مطالع الموشحات مساوية لعدد الأجزاء في الأقفال الآتية وبما في ذلك الخرجة. وهذا الأمر لا نجده في الزجل إذ يبدأ بمطلع مزدوج بقافية واحدة ثم نلاحظ ورود الأقفال على شطر واحد من هذا المطلع.
- ٤- عادة الخرجة تمضي مع موضوع الزجل وتكون عادة في الدعاء للممدوح بطول العمر وبدوام الرفعة والجاه، أو افتخاراً من الزجال بزجله (٣).

(١) ينظر: الزجل في الأندلس، د. عبد العزيز الأهواني، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، (د. ط)، ١٩٥٧م: ١٨٣.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطيين - : ٢١٠-٢١٣.

(٣) ينظر: الزجل في الأندلس: ٤٠-٤١.

ومن الزجالين الأندلسيين الحاج أحمد بن مدغليس<sup>(\*)</sup> رسم عشقه للطبيعة الأندلسية بلوحة من الصور فرسم البيئة المترفة التي نسجتها خيوط الطبيعة شأنه شأن الزجالين في هذا الوصف، وأقتفى أثر الشعراء والشاحين في هذا الفن، وكان وصفه للطبيعة من أرق أزجالهم التي دارت حولها<sup>(١)</sup>، فقال: <sup>(٢)</sup>

ثَلَاثَ أَشْيَاءَ فَالْبَسَاتِينِ	لَسْتُ تُجَدُّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
النَّسِيمِ وَالخَضِرَ وَالطَّيْرَ	شِمِّمٌ وَأَتَتَّرَهُ وَإِسْمَعُ
فَمُ تَرَى النَّسِيمَ يُؤَلِّوِلْ	وَالطَّيْرَ عَلَيْهِ تَغَرَّدُ
وَالثَّمَارَ تُنْزِرُ جَوَاهِرَ	فِي بَسَاطٍ مِنَ الزُّمُرْدِ
وَبِوَسْطِ المَرَجِ الأَخْضَرِ	سَقْفِي كَالسَّيْفِ المَجْرَدِ
شَبَّهْتُ بِالسَّيْفِ لِمَا	شُفِّتِ الغَدِيرِ مَدْرَعُ
وَرَدَاذَا دَقَّ يَنْزِلُ	وَشُعَاعِ الشَّمْسِ يَضْرَبُ
فَتَرَى الوَاجِدَ يَفْضُضُ	وَتَرَى الآخِرَ يَدْهَبُ

=(\*) اسمه مركب من كلمتين أصله " مَضَعُ اللِّيسِ " " والليس " جمع "ليس" وهي ليقة الدواة، وذلك لأنه كان صغيراً بالمكتبة يوضع ليقته، والمصريون يبدلون الضاد دالاً فانطلق عليه هذا الاسم (مدغليس) وعرف به، وكنيته في ديوانه أبو عبدالله بن الحاج. بلوغ الأمل في فن الزجل، تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي (٢٦٧-٨٣٧م/١٣٧٤-١٤٣٣هـ)، تحقيق: د. رضا محسن القريشي، تصدير: أ.د. عبد العزيز الأهواني، دار الثقافة والارشاد القومي، دمشق، (د. ط)، ١٩٧٤م: ١٠٢. وله منزلة عظيمة تضاهي منزلة أبي تمام المشرقي فقال عنه لسان الدين ابن الخطيب "ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصنعة، فابن قرمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قرمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب واقتصر عليه". • نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د. ط)، ١٩٨٨م: ٣/٣٨٥.

(١) ينظر: الأدب الأندلسي: ١٢٩.

(٢) المغرب في حلى المغرب: أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، حققه وعلق عليه:

د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م: ٢/٢٢٠-٢٢١.

والتُّبَاتُ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ      وَالغُصُونُ تُرْقِصُ وَتَطْرَبُ  
وتريـذ تجي إلىـا      ثم تـسـتـحـي وتـزجـع  
وجوارِ بحل حور العين      في رياض تشبه لجنا  
وعشـية قصـير ا      تنظر الخـاع تجنا  
لـش تـريـذنفـازقـوها      وهى تحـمل طاقـاعنا  
وكـان الشـمس فيها      وجـه عاشقـ إذ يـودع

استفتح الشاعر زجله بأسلوب الإطناب المتمثل بقوله :

ثـلاث أشـياء فالـيسـاتين      لـس تجـد في كل مؤـضع  
النـسيم والخـضر والطـير      شـم وانتـزه وإسـمع

إذ ذكر بالعدد (ثلاث) أشياء؛ لتكثيف حالة الترف المعاش، فضلاً عن إثارة ذهن المتلقي وشد انتباهه ويواصل الشاعر تعداد الأشياء من خلال التوازي الحاصل في قوله (النسيم.....واسمع).

النسيم ← شم = صورة شمسية

الخضر ← انتزه = صورة بصرية

الطير ← اسمع = صورة سمعية

فنتج عن هذا التوازي عدة صورٍ مستوحاة من عالم الطبيعة المتحركة فكست المطلع بحلة رقيقة عن طريق توظيف الحواس التي تعد قوام الحياة، فالإطناب هنا سهل الرؤية بغير تكلف بدليل (لس تجد) ودلالة (كل) التي تفيد العموم أي في كل موضع.

فقام التوازي في النص على ربط المتلقي بالتurf إذ يوازيه في كل موضع من الحياة والوصول إلى تكاملية الحياة الهائلة بدلالة حروف العطف (الواو) المتكرر، فضلاً

عن تكرار فعل الأمر (شم، انتزه، اسمع) الذي يدعو المتلقي إلى إنعاشه بعالم الترف في أحواله المختلفة ومعالمه المتلونة، ويواصل الشاعر ذكر صورة الترف في النص بقوله:

والتَّمَارُ تُنْتَزُّ جَوَاهِرُ      فِي بَسَاطٍ مِنَ الزُّمْرُدِ

إذ شبه التمار بالجواهر بدلالة إلى ذهاب ذهن المتلقي إلى سعة الترف في كل مكان وبصورة مبعثرة غير منتظمة وهنا تظهر جمالية الصورة التشبيهية المرسومة داخل اللوحة الفنية.

أضف الشاعر صورة جمالية أخرى للوحته الفنية فشبه اخضرار الأرض بالزمرد ليعزز الطبيعة الزاخرة في أجمل صورها وأنقائها وهي مرتدية حلتها الخضراء الجميلة والنفيسة بدلالة لفظة (الزمرد)، فضلاً عن لفظة البساط المخضر هذا المعنى الباطني للأرض المتسمة بالنمو والتطور، قاصداً وراء هذه الصورة التشبيهية الإشارة إلى الترف والسعادة التي ينعم بها الشاعر دون تكليف إذ الطبيعة الزاهية الخلابة، وهذا ما يتناسب مع نبضات الزجل.

ثم ينتقل من التشبيهات الأنيقة إلى إظهار عنصر القوة الذي يتكئ عليه في بلورة أفكاره وصياغتها داخل إطار صورته عندما قال:

وَبِوَسْطِ الْمَرْجِ الْأَخْضَرِ      سَقِي كَالسَّيْفِ الْمَجْرَدِ  
شَبَّهْتُ بِالسَّيْفِ لِمَا      شُفِّتِ الْغَدِيرِ مَدْرَعِ

فعقد المشابهة بين التمار والسيف جاعلا من القوة والاختراق والمضاء واللمعان القاسم المشترك بينهما، ثم يؤكد هذه القوة بتوظيف لفظة (مدرع) دلالة بارزة على العظمة الناتجة من تلازمهما في صورة واحدة.

فيأسماط الدور الثاني نلاحظ النغم يختلف عن سابقه وبشكل جلي من حيث تكثيف الحركة المتمثلة بـ(ينزل، يضرب، يشرب، يسكر، ترقص، تطرب) والتي توحى بشدة هذه الحركة وقوة تأثيرها.

فهذا المشهد كأنه جلسة ترفيحية أركانها السعادة واللذة فالعلاقة ما بين دلالات الصورة والنغم الموسيقي تبدو قوية ومتلائمة، فضلاً عن توظيف عنصر الرقة في اختيار الألفاظ لحسن معانيها وانسيابيتها، وكان للطبيعة النصيب الأوفر في رسم هذا المشهد فنصيبها بمنزلة نصيب القائد من الغنيمة، وأجمل ما يشد الانتباه في الزجل هي المفردات التي تخلق جو الهناء المفعم بإشراقه الفرح وصولاً إلى الترف عندما قال:

ورِذَاذَا دَقٌّ يَنْبُذُ زِلْ      وشُعَاعِ الشَّمْسِ يَضُرُّ رَبِّ  
فَتَرَى الْوَاحِدَ يَفْضُضُ      وتَرَى الْآخِرَ يَذْهَبُ  
والنَّبَاتُ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ      والغُصُونُ تُرْقِصُ وتُطْرَبُ

إذ شبه النبات بالإنسان، فحذف المشبه وهو الإنسان ورمز له بشيء من لوازمه وهو الشراب السكر، وكذلك الغصون شبهها بإنسان يرقص ويطرب ممتلىء بالسعادة وحب الحياة.

ويظهر روح الزجل وبهجته متبلورة في ألفاظ القفل الثاني:

وتَرِيذُجِي إِلَيْنَا      ثُمَّ تَسْتَجِي وَتَرْجَعُ

فألفاظ الزجل الرقيقة ذات الطابع المبسط شغلت مساحة حيوية داخل النص الشعري. وإن افتنان الشاعر بطبيعة بلاده وما تحتويه من عذوبة ورقة وطلاوة ينتفس بذكرها أعذب أنواع الصور، وقد فجر باحوائه قوة جمال طبيعته الأندلسية التي تشبه جمال الجنة الأبدية عندما قال:

وجوازِ بَحْلِ حُورِ الْعَيْنِ      فِي رِيَاضِ تَشْبِيهِ لِحَبَا

فحبه لها والانبهار بنعمائها قائم على الحس المرهف واللذة العالية وذلك على سبيل التشبيه المتمثل بلفظة (حور العين)، إذ شبه الجواري بحور العين وكذلك شبه



الرياض بالجنة، فكان للتشبيه حضورٌ لَوْنٌ جنبات صفحة القصيدة الزجلية بكل معالم الجمال الساحر.

لم يغفل الشاعر عن ذكر الزمن في قصيدته الزجلية لتكتملة صورته الشعرية من جميع أركانها، فقال:

وعشوية قصيرا تنظر الخُلع تُجَنَّا

نرى أن الشاعر أسدل صورته على وجه القلة بقوله (قصيراً) وفي ذلك جمالاً يتواعم مع جمال روحه الفرحة، فقد مضى الوقت وهو يعيش في أجواء مضيئة ترصد الذوق المترف والحياة الهانئة.

وتتسج صيغة الاستفهام باللهجة العامية عند الزجالين (ليش تريد نفارقها) ودورها في تقرير الجمال في التمتع، فضلاً عن ذكره لوقت الغروب بقلب من الهدوء والجمال في مظلة من الرومانسية وتناغمها حينما قال:

وَمَا أَنَّ الشَّمْسَ فِيهَا وَجْهَ عَاشِقٍ إِذِ يُوَدِّعُ

إذ شبه زوال الشمس بوجه العاشق الذي يعيش بنعمة بدلالات الرقة والسكون اللذين يعبران عن حالة النعيم في تلك اللحظة.

نلاحظ خفة سمة الزجل ورشاققتها واضحة كالمرآة الصافية من خلال حركة الفعل المضارع المكسور حرفه الأول بدل المرفوع في الأفعال الآتية (تَعَرَّدُ، يَنْزِلُ، يَضْرِبُ، يَفْضُضُ، يَذْهَبُ، يَشْرَبُ، وَيَسْكُرُ، وَتَطْرِبُ، وَتَرِيدُ، تَسْتَحِي، وَتَرْجَعُو يُوَدِّعُ) وهذا ما يؤكد قول العلامة ابن خلدون بعدم التزام الزجالين بقواعد الإعراب بقوله: "ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسة وتتميق كلامه وتصريح اجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير

أن يلتزموا فيها إعراباً واستحدثوا فناً سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على منحاهم بهذا العهد، فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة<sup>(١)</sup>.

فكل المشاهد التي التقطها الشاعر بقالب شعري عبر كامرته الشعرية النابغة من أعماق روحه المنعمة هي بمنزلة فلم سينمائي توثيقي لأشكال عريضة وخطوط بيضاء للجمال متدفقة نحو الانطلاق والبهجة توضح عن يقينه المستمر بحياة مشرقة فيتفاعل معها.

ونلمس الفرح المفعم في الزجل لدى شيخ الزجالين ابن قزمان وهو يعبر عن الترف والسعادة التي يعيشها وسط بيئة أندلسية مليئة بليالٍ جميلة وأعياد زينت بها حياته ليصورها أحسن تصوير قائلًا: (٢)

يَا جَوْهَرَ الْجَلَالِ	يَا فَخْرَ الْإِنْدُلُوسِ
طُولَ مَا نُكُونُ بِجَاهِكُ	لَسْنَا نَشْتَكِي بِبُوسِ.
اصْأَارَ الزَّمَانِ صَادِقِي	أَزَادَ أَوْ أَلَمْ يَرِيذْ
وَرِيذْتَ أَنْأَا سُورِي	جَدِيدِ ذَوَا جَدِيدِ
وَكُلَّ لَيْلٍ فَرَحَهُ	وَكُلَّ لَيْلٍ عِيذْ
وَأَجَائِيَتْ فِيهِ أَمَالِي	وَبِيَتْ أَنْأَا عُرُوسِ.

(١) مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، مراجعة: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، (د. ط)، ٢٠٠١م: ٨٢٥.

(٢) ديوان ابن قزمان القرطبي (٥٥٥هـ / ١١٦٠م) تحقيق وتصدير: فيديريكو كورينتي، تقديم:

د. محمود على مكي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر - القاهرة، ١٩٩٥ م: ٧٣ - ٧٥.

- ٢ زَارَتْهُ السَّيِّئَاتُ عَادَةً  
وَأُنْثِمَ حَكَمَاتُ لِي  
فَجِثَّتْ أُمِّي أَمَانِي  
وَوَلَّيْتُ الْمَكَارِهِ
- ٣ هُوَ قَدْ رَأَى تَجْرِي  
وَأُنْزِلَتْ أَمَّا بَرَائِي  
حَتَّى رَكِبْتُ دَهْرِي  
وَقَدْ مَضَى عَلَيَّ
- ٤ لَسَّ عَلِيَّكَ نَكِيرَةٌ  
فَإِنَّ ذِي الْمَحَاسِنِ  
وَهَذَا كُمُلُ رَاجِعِ  
لَسَّ تَنْبُتِ الْمَبَانِي
- ٥ يَا غُرَّةَ الْفَضَائِلِ،  
وَمَنْ مَشَتْ إِلَيَّ  
تَرَى قَدْ حَلَاوَةٌ  
أَشَدَّ هِيَ حَلَاوَةٌ
- ٦ بَقِيَّتْ فِي كَرَامِهِ  
وَكَانَ لَهَا أَنْ تُزَوَّرَ  
مَا شِئْتَ مِنَ الْأُمُورِ  
تَضْحَكُ مِنَ السُّرُورِ  
بِوَجْهِهَا الْعُبُوسِ.
- وَقَامَ إِلَى الْهُرُوبِ  
مِنْ زَمَّةِ الْخُطُوبِ  
وَأَنْقَادَ (لِي) لِلزُّكُوبِ  
سِينِينَ وَهُوَ شَامُوسِ.
- حَتَّى تَقُولَ لِي كَيْفَ  
عَلَى الْأُصُولِ تَقِفُ  
لِنَسْنَأِكَ الشَّرِيفِ  
إِلَّا عَلَى الْأُسُوسِ.
- يَا مُفْلَأَةَ الزَّمَانِ  
أَيَادِيهِ الْحَسَانِ  
ذِكْرُكَ عَلَى اللَّسَانِ  
مِنْ قَعِّكَ فِي النَّفُوسِ.
- وَعِرَّةٌ تُدُومُ

وَلَا وَجَّزْ دَعْدُوكُمْ	فَرَجْ مِّنَ الْهُمِّ وَمِ
إِنَّ النُّجُومَ لِيَأْتِي	وَأَنْتُمْ تَمُّ النُّجُومِ
وَقَصُّ دُكْمٍ مَشَّارِقِ	وَأَنْتُمْ الشُّمُّوسِ.
٧ أَلرُّمَحْبَابُ لِيَا أَخِي	لِقَلْبِي إِنْ نَسِيتُكَ
فَأَنْتَ هُوَ وَحَيَاتِي	لَسْ نَفْسٌ رَحَّ إِلَّا بِبَيْتِكَ
وَأَنْ نَرِيهِ ذُنُوبَهُ	نَزَّهَتْ عَيْنِي فِيكَ:
أَنَا نَرَاكَ أَمَامِي	وَأَنْتَ ذُكْرُ النَّوَسِ.

افتتح ابن قزمان مطلع زجله بتوظيفه لأداة النداء (يا) عندما قال:

يَا جَوْهَرَ الْجَلَالَةِ يَا فَخْرَ الْأَنْدَلُوسِ

فهى - يا - بمنزلة مفتاح لتوجيه عقل المتلقي وانتباهه على ما يكونه من حوار وأخيلة يمنح من خلالها أيضاً متعة التنزه بنتائجها التي رسمت، فقد ردها مرتين وبصورة افقية قاصداً وراء ذلك " إحداث تتابع أفقي يؤدي وظيفة المزج بين صفتين في ذات واحد"<sup>(١)</sup>.

\*النَّيْرُوزُ: اسم أول يوم من السنة عند الفرس معرب نُورُوز، أي اليوم الجديد، ويتكون من لفظتين: أولها (نو) بمعنى الجديد وثانيها (روز) أي اليوم، وهو يوم الفرح والتنزه. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د. ط)، (د. ت): ٣٤٩/١٥، مادة (نَحَز). وينظر: أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، دار الأسرة للطباعة والنشر، قم، (د. ط)، (د. ت): ١٢٨٨/٢.

(١) شعر أبي عبدالله بن حداد الأندلسي (دراسة فنية)، كاظم هاني ياسين التميمي، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية، جامعة بغداد، بإشراف: أ. م. د. أمل ناجي الدليمي، ٢٠٠٣م: ٩٣.

وهذا ما حققه فعلاً فهو يلمس في ذات الممدوح العظمة والفخر - لأهل بلاد الأندلس - اللذين أسهما على خلق بريق جمالي ترفي، وأن السعادة التي تتغلغل في أعماق الأندلسيين من خلال الأثر النفسي الذي يفضيه الممدوح عليهم فهو مصدر سعادتهم وبوجوده معهم يتجاوزون كل الموانع التي تؤدي بهم إلى حياة الشقاء والفقر، فإنَّ ضمان حياتهم المبهجة مستمرة ما زالوا تحت جناح الممدوح وفي كنف رعايته. بدلالة قوله: (طول ما نكون بجاهك)، ثم ينتقل إلى تكوين البيت الأول فمثل الزمان بؤرة كثيفة لتصوير البهجة في جميع أسماط البيت، فضلاً عن القفل، إذ نلحظ طغيان الافتخار المبطن لذاته من خلال مصادقته للزمان فالقوة والسيطرة سجيته فيه واستطاع الزجال من خلال الطباق السلبي بين رغبة الزمان (أراد) وعدم رغبته (لم يرد) أن يقوي المعنى ويغور في أعماقه وصولاً إلى قدرته على تصوير جوانب حياته المشرقة بالسعادة وأن حياته المفعمة بالترف متممة بالاستمرارية في التجديد وأن كل جديد آتٍ لا محال وبدون انقطاع بدلالة قوله: (جديد ورا جديد).

أما السمط الثالث يركز على العمومية في ثراء دلالات الترف وذلك بقوله:-

وَكُلُّ لَيْلٍ فَرَحُهُ      وَكُلُّ لَيْلٍ عَيْدُهُ

لقد انتقى وقت الليل تحديداً وجعله إطاراً للوحته المنقوشة بمباهج الحياة المندرجة تحت لفظة (الفرح، العيد) وأضفى عليه حساً مرهفاً يتسم بطابع الرخاء في العيش، ونلحظ في توظيفه لليل انزياحاً في المعنى، إذ أبدل الشاعر دلالة الليل وما يحوي في طياته من خوف وظلام إلى مسرات وأعياد تحوي في طياتها سعادة مغمرة في الملابس والمأكل وزيارة الأصحاب والتنزه في أوتار الموسيقى العذبة المستمرة عموماً في طياته بدلالة قوله (كل ليل).

فالليل محبب ومفضل لديه وهو الزمان الصائب في توظيف غايته المرجوة فالليل

عنده يتميز عن بقية الأوقات بكونه:-

- ١- ذا فائدة معنوية تفصح بالنفع النفسي له فهو صورة النعيم المعاشي فيه.
  - ٢- ذا دلالة رمزية ارتبطت بمعاني الحياة المنبثقة من السعادة والسرور المفعم.
  - ٣- وسيلة للوصول إلى غايته ومبتغاه.
  - ٤- يندرج الخط الزمني لليل تحت إطار أجواء الهدوء والسكينة الخلابة الممتعة بكل أطرافها
  - ٥- يعطي الليل دلالة العلو والإشراق للممدوح.
- ثم يختم قفله الأول بذكره تكملة الأفرح بقوله (وبت أنا عروس).
- في أسماطه الثلاثة، فضلاً عن قفله:-

ويبدأ الشاعر في المقطع الثاني تكثيف الصورة الاستعارية وبخطوط عمودية

زَارَ تَنِيَّ السَّعَادَةِ	وَكَمَانَ لَهَا أَنْ تُزُورَ
وَتُومَّ حَكَمَتِ لِي	مَا شَيْتَ مِنَ الْأُمُورِ
فَجَبَّتِي الْأَمَانِي	تَضْحَكُ مِنَ السُّرُورِ
وَوَلَّتْ الْمَكَارَةَ	بِوَجْهَهَا الْعَبُوسَ.

يكشف الشاعر في استعمال الاستعارة فيعطيهها مساحة واسعة في تكوين صورة الترف لأنها تعد "أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس في حلي الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها" (١). ففي البيت الأول (زارتني السعادة) فاستعار الزيارة للسعادة ثم أعطاها حق الحكم والسيطرة في حياته في سمطه الثاني، أما في سمطه الثالث ينقلها إلى ما لها من دور في حياته فيجعلها قادرة على تحقيق فعلي للسرور والضحك وكأنها إنسان عاقل واع بكل ما يدور من حوله فقد

(١) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق، تحقيق: د. عبد الحميد هندوي، المكتبة العصرية، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا- بيروت- لبنان، (د. ط)، ٢٠٠٧م: ٢٣٥/١.

أنت ثم أعقب زيارتها الضحك ، ويوضح لنا دوره فجعله بمنزلة منبه انفعالي، يشكل في طياته جواً مملوءاً بالشعور بالراحة والهناء. " والواقع أنَّ ثمة ضحكاً بدائياً لا يكاد ينفصل عن شعورنا بالراحة الجسمية أو الرفاهية العضوية، بدليل أننا قد نبتسم أو نضحك لمجرد شعورنا بلذة الحياة أو متعة البقاء <sup>(١)</sup>. وهذا ما شعر به ابن قزمان حقاً وهو يعيش حياته بكل جوانبها الايجابية.

وقد ختم قفل بيته الثاني بالتصوير الاستعاري المتمثل بـ(وولت المكاره...) وكان مصوراً يقطاً ومرتقياً ومتقناً في رسم جنبات لوحته النفسية عندما استعار للمكاره الوجه العبوس ولكن الإيجابية المتحققة تمثلت في طردها من حياته المتسمة بكل معاني التنعم، فقد كان ابن قزمان زجلاً مصوراً ذكياً في رسم شريطه الصوري.

ونلاحظه يسند إليه أفعالاً تخص الإنسان الناطق وكانت هذه الأفعال متحققة لكونها وظفت بصيغة فعل ماضٍ، وتترأى لنا سيطرة ابن قزمان على قوام حياته الهائلة فهو ثابت لا يتحرج والأفعال هي التي تتسم بالحركة التي ينبثق منها الزمن فـ " الزمن لا يوجد دون تغير " <sup>(٢)</sup> بدلالة زيادة السعادة وحكمها فضلا عن تحرك الأمانى ومجيئها ضاحكة له.

هُوَ قَدْ رَأَى تَجْرِي	وَقَامَ إِلَى الْهُرُوبِ
وَقُرْتَانًا بِرَائِي	مِنْ زَمَّةِ الْخُطُوبِ
حَتَّى رَكِبْتُ دَهْرِي	وَأَنْقَادَ (لِي) لِلرُّكُوبِ
وَقَدْ مَضَى عَلَيَّ	سَيْنِينَ وَهُوَ شَمُوسٌ.

(١) سيكولوجيا الفكاهة والضحك، د. زكريا ابراهيم، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، (د.ط)، د. ت: ١٠٢.

(٢) مفهوم الزمن عند الطفل: سيد محمد غنيم، مجلة عالم الفكر الكويت، م(٨)، ع(٢)، ١٩٧٧م: ٦٦.

في البيت الثالث نرى أجواء معركة قائمة بين طرفين معنويين وهما: (السعادة والدهر) انتهت إلى انتصار السعادة التي جعلها بمنزلة إنسان عاقل ذي حكمة وسيطرة على ( الدهر) المرادف للزمن، وانتقى هذه المفردة من مفردات الزمن؛ "لأنها تعطي نوعاً من القوة التي قد لا تعطىها أية مفردة من مفردات الزمن الأخرى"<sup>(١)</sup>. ولكن رغم قوتها إلا أن الشاعر استطاع أن يحول دلالاته المعجمية إلى دلالة فكرية من خلال الوجه البلاغي الاستعاري المستعمل في تكوين صورته الترفية<sup>(٢)</sup> وإيضاح الجانب المشرق، فأظهر قوته التي تتناسب مع قوة الدهر الخارقة بالرغم من انكساره له وجعله ميسراً تابعاً لأوامره، وأراد من ذلك أن يترجم للمتلقي قوته الجسمية والفكرية من خلال سيطرته على الدهر.

وفي قفل بيته تظهر لنا أناقة حياته المعاشية وهي تزهو بألوان الراحة والنعيم ولفترات طويلة بدلالة قوله: (سنين) الموظفة بصيغة الجمع وكذلك لفظة (شموس) للدلالة على تعظيم حالته.

ثم تلى ذلك بالمقطوعة التي أشار فيها إلى موقف تصالحي بين ذاته والزمان بلوره لنا بلغة شعرية سلسة ومرنة في الوقت نفسه فقال:

يَا غُرَّةَ الْفَضَائِلِ،	يَا مُقْلَةَ الزَّمَانِ
وَمَنْ مَشَتْ إِلَى	أَيَادِيهِ الْحِسَانِ
تَرَى قَدْرَ حَالَوْه	ذِكْرَكَ عَلَى اللِّسَانِ
أَشَدَّ هِيَ حَالَوْه	مِنْ قَعَكَ فِي النُّفُوسِ.

(١) الزمن في الشعر الأندلسي من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف، أنور مجيد سرحان السوداني، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب الجامعة المستنصرية، بإشراف: أ. م. د. محمد شهاب العاني، ٢٠٠٣م: ٣٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٧.



قد يأخذ الاستدعاء بعداً زمانياً ذا قيمة جمالية جاعلاً من الفكر المكان الذي ينتج الفضائل النبيلة وتصبح أداة النداء (يا) أقدر على أن تبرز لهجة الانفعال وهاجس الشاعر في أدائه للتجربة مع ممدوحه، ومن الأمور اليسيرة للشاعر المبدع أن يتحدث عن أشياء غير مألوفة بلغة مجازية بعيدة عن الواقع أقرب إلى الخيال الشعري يؤدي به إلى تحقيق الهدف المبتغى من وراء ذلك وهو وصول المجاز إلى ذروته بقوله يا مقلّة الزمان<sup>(١)</sup>. إذ جعل من العين بؤرة الرؤية الجمالية لزمته المعاش فيه المتمثل بقمة الحياة الرائعة المبهجة فهي تجدي إلى صنع ركائز الترف.

فنادى الفكر والنظر وجعلهما مرتبة واحدة من الأهمية واستحضارها سبباً مهماً إذ أسهما في إنتاج الحقيقة الواقعية لحياة الشاعر، والحقيقة التي لامراء بذكرها أنّ فن الزجل الأندلسي لم يتخل عن استعمال الفنون البديعية فلنداءاته حدّ ما يزال يرن من خلال الجنس الذي هو "ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه الكلي أو الجزئي في تركيب الألفاظ، فهذا التشابه في الجرس يدفع الذهن إلى التماس معنى تتصرف إليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى في سياق البيت"<sup>(٢)</sup>.

إذ جانس الشاعر بين الحلاوة المتمثلة بلبين السمعة والذكر الحسن مع حلاوة المذاق المصنوع من كعكة والجامع بينها هو طريق واحد لا محال وهو الفم مستعملاً ريشة مرنة تناسب موسيقى الزجل وتثير انتباه المتلقي إلى جمالية تلك النغمة الإيقاعية والدلالية الحاصلة في السمط الثالث والقفل من البيت الخامس.

(١) ينظر: تشكيل الخطاب الشعري دراسات في الشعر الجاهلي، د. موسى رابعة، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ٢٠٠٦م: ٣٤-٣٥.

(٢) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م: ٢٨٤.

وقد أثرت هذه الهندسة الصوتية للنص وأعطت جرساً موسيقياً عكس الوضع النفسي  
الراهن للشاعر والمتمثل بإطار ممتلئ بنعيم الحياة بفضل ممدوحه.

بَقِيَّتْ فِي كَرَامِهِ      وَعِزَّةٌ تُدَوِّمُ  
وَلَا وَجَعَ دَعَاؤُكُمْ      فَرَجَّ مِنْ أَلْهُمُومِ  
إِنَّ النُّجُومَ لِيَأِي      وَأَنْتُمْ النُّجُومِ  
وَقَصْرُكُمْ مَشَارِقُ      وَأَنْتُمْ الشُّمُوسُ.

لقد حظيت الطبيعة بمرتبة عالية واهتمام زاخر من قِبَل زَجَّالِي الأندلس فهي  
متنفسهم الصادق في إظهار خلجات ذاتهم ومصنع أفكارهم فالشاعر في علاقة مستمرة  
مع الطبيعة وبصورة متجددة وبفضل وجود ممدوحه فهو في إطار حياة تضخ مثيرات من  
الفرح عبر مساحات كونية كـ (النجوم، الليلي، الشموس) فالاستمرارية واضحة ومتجددة في  
السمط الأول بدلالة لفظة (تدوم) التي تنافي الانقطاع فهو لن يختزل تصوير حياته في  
هذه اللقطة بل يجاوز ذلك ليشمل تعاقب الليل والنهار بكل انسيابية فمع هذه الحركة  
يرتقي إلى عنان السماء وبصورة دائرية تجديدية فيستمد القوة الناعمة من خلال ممدوحه  
ويؤكد في ذكره على تكرار (أنتم) مرتين التي زادت نغمتها التأكيد على هوية الممدوح  
وشبهه بالنجوم تارة ثم يعقبه بتشبيهه ثانٍ بالشمس تأكيداً على حيوية الصورة التي تحوي  
في طياتها تعبيراً صادقاً على استمرارية الحياة المترفة في كنف ممدوحه.

الرُّمَحُ بَالٌ يَا أَخِي      لِقَلْبِي إِنْ نَسِيكَ  
فَأَنْتَ هُوَ حَيَاتِي      لَسْ نَفْرَحُ إِلَّا بِبَيْتِكَ  
وَإِنْ نَرِيكَ دَنْزَاهِهِ      نَرَاهُ عَيْنِي فِيكَ:  
أَنَا نَارُكَ أَمَامِي      وَتَذُكْرُ النُّرُوسِ.

إنّ الدلالة المكانية للممدوح عالية جداً عند ابن قزمان فهو سبب شهيقه وزفيره، فضلاً عن تكريمه بمرتبة الرئاسة التي عبّق جوها بعطر الأفراح والسعادة المستبدة في روجه فقد عده نوعاً خاصاً لا مثيل له ولن يكرره الزمن بدلالة أوحتها لفضة (حياتي) فالحياة واحدة لا تتكرر مرتين وكذلك ممدوحه نادر الوجود، وهذه الدلالة المكانية التي أعطاها له تمثل سرّ انتعاشه وإشراقه.

واستثنى في السمط الثاني كذلك أن يستتشق تكون حالة حالة الفرح إلا بوجوده الأغر بدلالة اللفظة الأندلسية العامية (إلا بيك)، ثم ينتقل إلى ترديد نغمة إيقاعية تطرب النص من خلال الإيقاع الداخلي المتمثل بالجناس الحاصل بين النزهة الترفيفية التي تمتزج فيها كل أنفاس المباهج ومسررات الجمال وبين (نزّهت) التابعة لتحليق النظر في الممدوح من خلال ذكره للعين التي تحوي في طياتها إشراقاً جمالية مفعمة بمعاني الحياة المبهجة، ف"البصر أدقّ الحواس حساسية وتأثراً بالواقع المحيط، فعن طريق العين يكون الاحتكاك مباشراً بموضوع التجربة، بل إن هذه أسبق الحواس إلى إدراك هذا الواقع" (١).

فهي لغة إشارية تنتثر من خلالها النظرات الإيجابية المنطقية باتجاه ممدوحه من أجل رصد حالة الإفراط التي يمتلكها ممدوحه من رقة جماله الخارجي المتناسق، فضلاً عن التمتع الشعوري الداخلي بذات الممدوح التي انبثقت منها كل معاني الحياة الترفيفية، أما بالنسبة إلى اللغة التي نقشت بها هذه الصورة الزجلية جاءت متضافرة بين العامية والفصحى وهذا جائز في كتابة الزجل ف"لم تكن لغة عامية خالصة، بل هي مزيج من اللغات واللهجات العامية، فقد حضرت فيها العامية الأندلسية القرطبية، واللغات البربرية والرومنثية، و حضرت - كذلك - اللغة العربية الفصحى، وحضورها في الأزجال الأندلسية جاء منافياً لما قاله ابن قزمان في مقدمة ديوانه، بأن يكون الزجل خالياً من اللغة العربية الفصيحة، ولغة الأزجال تختلف باختلاف الممدوح، فالزجال يلجأ إلى اللغة البربرية اذا

(١) الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس، د. وحيد صبحي كَبَّابَة، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د. ط)، ١٩٩٩م: ٩١.

كان الممدوح من المرابطين، أما اذا كان الممدوح اندلسياً فإنه يستخدم اللغة الرومنثية<sup>(١)</sup> فمن خلال لغة لسان الممدوح تنطلق كتابة الزجل وغاية الزجالين في ذلك هو التقارب والتفاهم : فعن طريق وسيلة الاتصال يصل زجلهم للجميع وهذا هو سر التنوع في استعمال اللغات المتعددة داخل اطار النص الزجلي.

وفي النهاية نستطيع القول بأن الشاعر كان حذقاً جداً وهو يللم أجواء السعادة ليصبها في قالب الخرجة العامية الأندلسية التي تسمى مركزاً بقوله:-

أَنَا نَرَاكَ أَمَامِي      وَنَذُكُرُ النُّرُوسَ.

فقد أنهى البناء الزجلي بذكر جميع أطياف الفرح تحت لواء لفظة عيد رأس السنة وبلهجة أندلسية عامية نروس بعيدة عن الفصحى فاتسمت خرجته بطابع الوضوح.

تتأغم المعنى مع نغمات الموسيقى الداخلية وذلك بتكراره لحرف السين المهموس (ثلاث وعشرين) مرة لتكون قافية للمطلع والأقفال وكذلك الخرجة، فضلاً عن تآثره في الأدوار المتكونة في البيت، تعبيراً عن نسمات الجو النفسي المنعش الذي ينبض بالراحة عاكساً النغمة السعيدة التي يعيشها الشاعر في عالم من الهدوء والاستقرار وحياة الترف المصاحبة له.

(١) صورة الممدوح في ازجال ابن قزمان، محمد عبدالمنعم حمدان صوالحة، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس - فلسطين، بإشراف: أ. د. وائل أبو صالح، ٢٠١٣م: ١٥٣.

### الخاتمة

إنَّ سهولة لغة الزجل وبساطتها المتمثلة باللغة العامية بعيداً - عن ضوابط الإعراب - كانت سبباً لظهوره في مجتمع ميال بطبعه للغناء فأصبح فناً يميز الهوية الأندلسية ، وبالرغم من سهولة معانيه واساليبه إلا أنه لم يتخلَّ عن توظيف أجمل الصور البديعية التي تسرح العقول وتطيب القلوب ، فضلاً عن ذلك أن هذه السهولة أظهرت دلالة الترف بكل معانيه .

***Zajal is a leisure phenomenon  
Reading in Andalusian models***

***Asst.Prof.Dr. Saleh Wais Muhammad  
Heba Issa Hussein***

***Abstract***

The ease and simplicity of the language of the Zajal, which is represented in the vernacular language - far from the rules of expression - was a reason for its emergence in a society inclined to its nature of singing, so it became an art that distinguishes Andalusian identity, despite the ease of its meanings and methods, but it did not abandon the employment of the most beautiful and imaginative images that demobilize hearts and delight the hearts, as well as This is because this ease showed the significance of luxury in all its meanings.